تاريخ آل معن

(تابع ما قبلهُ)

وعلم الامير فخر الدين ان الاسطول العثماني قادمٌ عليهِ بقيادة محمد باشا وان اميرهُ انفذ الى صيدا عشرة سفائن بامرة يحيي باشا ليرصد طريق البحر فلا يفرّ الامير بحرًا فللحال نهض الى نهر صيدا واجتمع بيحيي باشا وشكا اليهِ من تجامل الحافظ عليهِ مع انهُ عرض عليهِ[1] واحدًا وخمسين الف ذهب سلفًا عن السنة التالية . ثم ان الامير قدَّم للباشا هديةً واستكتب اهل صيدا عريضةً وارسلها مع رجلين من اخصائهِ لمحمد باشا امير البحر فلما وصل الوفد الى الباشا سر بذلك وامَّن الامير والوفد وبعد ايامٍ اقلعت السفن العثمانية من ميناء صيدا وقدم مركبان فرنساويان ومركب هولاندي

وكان الامير في خلال ولايتهِ على بيروت قد تعرَّف بالبنادقة الذين كانوا ينتابونها للتجارة في الاحايين وشرع يراسل حكومتهم عن يدهم وكانت هذه الحكومة من اعداء الدولة العلية الاَّ في تلك الاونة فانهُ كان بين الدولتين هدنة وتواد ومن الغريب ان يقع في ابانها مثل هذه المخابرات على ان فخر الدين بنى من الاماني صروحًا عاليةً حاسبًا ان المساعدات الاجنبية تنيلهُ رغائب نفسهِ ولذلك لما رأى الجيوش السلطانية زاحفةً عليهِ وانس من انصارهِ القعود عن نجدتهِ عزم على السفر الى اوروبا اما فرارًا من العسكر واما التماسًا للنجدة الموعودة وكان الحاج كيوان الماروني قد اشار عليهِ بالسفر فأبى ولكنهُ لما استأذنهُ بسفر نسائهِ وامتعتهِ واذن لهُ استاجر احد المركبين الفرنسيين الموجودين في صيداء وانزلهنَّ فيهِ ثم ارتضى الامير بالسفر بعد اذ استقدم اخاهُ الامير يونس الى الدامور وكذلك الاميرين منذرًا وناصر الدين التنوخيين ومشائخ البلاد وآل الخازن وغيرهم من الوجوه واستنهضهم لنصرتهِ فابوا جميعًا فرأى انهُ مخذولٌ ولا امل لهُ بنصرة حلفائهِ فعاد حينئذٍ الى صيداء وعهد بالامارة الى اخيهِ الامير يونس على ان يقيم في دير القمر فخرج اليها برجالهِ واخصاء اخيهِ وسكانهِ . ولكن ثولثاي ولامرتين يقولان انهُ استناب ابنهُ عليًّا ولا نرى لذلك سندًا الان عليًّا كان يومئذٍ في حوران . ولما تمَّت اهبة الامير استأجر المركب الفرنسي الاخر والمركب الهولاندي كلاًّ منهما بخمسة آلاف ذهب ونزل باحدى نسائهِ وبمماليكهِ وغلمانهِ البالغين خمسين نفرًا ونزل الحاج كيوان في المركب الاخر فلما

(١) وفي رواية الخالدي الصفدي ان هذا القدر من المال كان للامير على خزينة الشام لانهُ كان قد دفعهُ سلفًا

علم الربان الهولاندي بان اجرة المركب الفرنسي كاجرة مركبهِ طلب مضاعفة الاجرر فاداها الامير ثم طلب خمسة الاف اخرى كان الامير قد اخذها منهُ جريمةً نقيئة بها (٢)، ولم يبقَ مع الامير حين سفرهِ الاَّ خمسة وعشرون الفًا ذهبًا ثم اقلعت السفن من صيداء وقيل ان الامير سافر من بيروت

وبلغ الامير ايطاليا ونزل برَّها واختلف الرواة في اسم الموضع فمن قائل انهُ نزل في فلورنسا ومن مخبرٍ انهُ في توسكانا وروى غيرهما في ليكورن بحيث لو اطلع غير الخبير على هذه الروايات في مصادرها لاحتار ولم يدرِ ايها يعتمد والحق ان فخر الدين كان على صلةٍ مع آل مديسي Médici امراء فلورنسا وكان هؤُلاء قد اتسع في تلك الاونة نطاق امارتهم فعمَّ كل بلاد توسكانا وفازوا بصداقة البابا بيوس الخامس على تلقبهم بكران دوك توسكانا فاتخذ احدهم فرديننـدو الاول ليكورن مرفأً للسفن المتجرة مع الشرق فما عتمت المدينة ان كبرت وازدهرت. فالاقوال المتضاربة ظاهرًا صحيحةٌ والمرجح ان فخر الدين نزل البر في ليكورن ولكنهُ اقام في بيزا المنضمة الى تلك الامارة وذلك بامر الكران دوك والكران دوك هذا هو كوزمو الثاني (الذي حكم من سنة ١٦٠٩ الى سنة ١٦٢١) وقد رحَّب بالامير وكذلك رحَّبت بهِ امهُ وأُخلي لهُ قصرٌ فسيح وأُجريت لهُ الرواتب البالغة نحو الفي سكوت في السنة ثم ارسل الكران دوك بعضًا من عظماء البلاد يسلمون عليهِ ويستخبرونهُ عن شؤُونهِ فالحوا عليهِ بالسؤَال كثيرًا ولكنهُ تحفظ منهم واجابهم مقتضبًا فما سألوهُ عن عدد العسكر الذي يستطيع ان يجدهم بهِ اذا قصدوا بلادهُ فاجابهم انهُ يومئذٍ بين ايديهم ولا يستطيع جوابًا فقالوا اذا لم يكن ممكنًا لاهل لبنان ان يجدوهم فهل يبيعونهم زادًا فقال لهم انكم عارفون بقوة المسلمين وحول العثمانيين فان كنتم قادرين على غلبة قواتهم فانتم في غنيً عن الاعتماد على معونة الغرباء في تموينكم فسألوهُ كم من العسكر يجتمع تحت لوائك في بلادك فقال لما كنت واليًا على لبنان كنت احشد عشرين الفًا غير الذين يقيمون في بلادهم اما الان فاني لسوء الحظ لا احكم الاَّ على نفسي

قلت اذا صحت هذه الرواية فانها تدل على اباء فخر الدين ان يكون آلةً في ايدي الاجانب يسعى لهم في غرضهم وصحتها تناقض الرواية القائلة بما سبق لهُ من مخابرتهم للاعتضاد بهم لانهُ لو كانت نفسهُ تحدثهُ بمثل هاتيك المطامع لما ابى الانتفاع بها حين صارت وشيكة الوقوع فكأَن سفرهُ الى هاتيك الديار لم يكن الاَّ فرارًا من العسكر السلطاني وبطشهِ وانما التجأَ الى القوم الذين كان يحسن الى تجارهم المقيمين في بلادهِ بالحماية والعضد وليس غريبًا ان

(٢) وفي رواية الخالدي ان المال كان قد اخذ خطاء من القنصل المسمى كروانا

يسعى القوم في استنصاره على الدولة لما هو معروف من عدائهم لها ولذلك يحكى انهُ لم يمضِ الاَّ بضعة ايام على محادثتهِ حتى تقلَّص ظلّ الترحاب بهِ وقلت كمية المال المرتب لهُ حتى اصبح محتاجًا الى رهن مجوهرات امرأتهِ للانفاق على بيتهِ مع انهُ اقام في بيزا يعيش عيشةً بسيطة خاليةً من الترف لكنهُ لم يكن مهملاً ومع ذلك فقد تولاَّهُ الملل والضجر لاسيما وقد انقطعت صلاتهُ مع الكران دوك او كادت

اما تاريخ هذه الرحلة ففيهِ خلاف بين الكتبة لكن المرجح وقوعها سنة ١٦١٢ لان ذلك قول جلةٍ من العلماء الاعلام كالبطريرك الدويهي والمطران يوسف الدبس والمرحوم البستاني واحتذاهم صاحب تاريخ كسروان وانما خالفهم الخالدي الصفدي واخبار الاعيان والمسيو دريس صاحب التاريخ العام (Dreyes; Chronologie Universelle) فانهم ارخوا ذلك سنة ١٦١٣ واما الكولونل تشرشل فقد ارخهُ في ٢٥ اكتوبر (ت) سنة ١٦١٤ فتأمل

ولما ذاع خبر وصول الامير الى اوربا استلفت الانظار اليهِ واسترعى السماع لكلامهِ وشرع الناس يتسآلون عن شأنهِ وعن وطنهِ وامتهِ ومنشئها وانبرى الباحثون لذلك ينقبون عن الوقائع التاريخية والاشخاص ولا يهتدون وتراهم يخبطون خبط عشواء في اعتبار الدرزية من الفرق الاسلامية والنصرانية فما قالوهُ انهم بقية شرذمةٍ من الصليبيين حاسبين ان اولئك التجأوا الى الجبال العصم وانهم ظلوا محابة ايامهم يعادون اصحاب البلاد فكان هذا القول على غثهِ مقبولاً لدى فخر الدين ليبقى لهُ ما فاز بهِ من التفات الافرنج واحتفائهم بهِ وما علق بهِ املهُ من النصرة السياسية فادعى انهُ من سلالة آل لورين وساعدهُ الحظ ان بعضًا من الدين تهمهم الرسالات الدينية او التجارية في سورية صدّقوا مدعاهُ ليفوزوا منهُ باستمرار حمايتهِ وعنايتهِ بهم اذا عاد الى وطنهِ حاكمًا وتمادوا فشرعوا يقيمون الادلة على صحة قولهم حتى قال قومٌ منهم ان كلمة دروز مشتقة من دري Dreux وهو اسم احد امراء الصليبيين زاعمين ان جماعة من الصليبيين الفرنسويين تحت امرة الكونت دري نزلوا تلك البلاد فنسبت الجماعة لزعيمها وعرفت بهِ . ثم ان صاحب اخبار الاعيان يحسب المعنيين من المسلمين وكذلك يحسبهم الكولونل تشرشل في كتابيهِ تاريخ لبنان وتاريخ الموارنة والدروز على ان معظم المؤرخين الذين قرأنا مؤلفاتهم عنهم يحسبونهم من الدروز وقد صرّح بذلك المحبي والمرادي والبستاني الاَّ ان المحبي يقول في صدر ترجمة فخر الدين ان بعضًا من حفدتهِ قال لهُ ان فخر الدين كان يقول ان اصل آبائنا من الاكراد سكنوا هذه البلاد فاطلق عليهم الدروز باعتبار المجاورة لا انهم منهم قال وهذا ايضًا غير ثابتٍ الخ . قلت لو صحَّ عند المسلمين السنيين ان بني معن كانوا

منهم لما تبرأ الامير حسين بن فخر الدين من الدرزية حيث لبث في الاستانة بعد مقتل ابيهِ كما روى المرادي في ترجمتهِ

واما قول حفيد فخر الدين للمحبي ان اصلهم من الاكراد ففيهِ نظرٌ لان القوم كانوا يتفاخرون بنسبهم العربي وانهم من بني ربيعة ناهيك ان شاعرًا معاصرًا لفخر الدين اسمهُ محمد الطالوي كان قد مرَّ على صيداء ومدح الامير ثم اخذ الامير مملوك الشاعر فكتب ذاك الى والي دمشق شريف باشا قصيدةً يشكو فيها ويتظلم من فعلة الامير وفي القصيدة هذا البيت

ماذا لقي في ثغر صيدا من دروزيٍّ غويّ

ثم ان سفر فخر الدين الى اوربا لم يطفئ جمرة الحرب بل عاد ابنهُ من حوران لنجدة بلادهِ لان احمد بك احطَّ على قلعة شقيف ارنون وحصرها طويلاً وكانت النجدات تتوارد على عسكرهِ من انحاء البلاد حتى حصروا بلاد الامير يونس المعني فاشار عليهِ قومهُ ان يرسل امهُ الى الباشا في طلب الامان والتسليم فارسلها وصحبها بخمسة وعشرين الف غرش واربعة من الخيول العراب هديةً وبعث معها ثلاثين رجلاً من عظماء البلاد وفي غضون ذلك علم بمراسلات سكمانهِ والباشا فخرج من دير القمر وكان حسين باشا سيفا مرابطًا في الدامور فلما علم بخروج الامير وعسكرهِ من دير القمر قصدها ليحرقها الاَّ ان ام الامير كانت قد بلغت مخيم الوزير وقدمت لهُ الخيول والمال فرحَّب بها واجاب ملتمسها بان عفا عن ابنها وخلع عليها ولكنهُ اشترط ان يؤدي لهُ مئة الف قرش نصفها فداء عن حرق الشوف والنصف الآخر لكف القتال وابقاء القلاع فارتضت بذلك وظلت عندهُ رهينةً فامر بالانكفاء عن الحرب واطلق الامان لآل معن وارسل بعض اخصائهِ يبشر الامير يونس بما حاز من العفو وان يسعى بتدبير المال

والظاهر من رواية العلاَّمة الدويهي ان مجيء ام الامير للمخابرة بالصلح كان بطلب الباشا اجابةً لالتماس الامير يونس لانهُ رأى البلاد اصبحت عرضةً للحرق والسلب الاَّ ان المحبي يقول انهُ انما ارتضى بنزولها اليهِ لما علم ان فخر الدين قد سافر الى اوروبا وانها لما مثلت لديهِ قالت لهُ نحن ما ضبطنا بلدًا بغير اذن السلطان ولا انكسر عندنا مال وانها اعطتهُ مئة الف للسلطان وخمسين الفًا للوزير ومثلها لهُ

ولما وقع الصلح عاد الباشا الى دمشق والرهائن معهُ وما لبث الامير يونس ان برَّ بوعدهِ وجمع المال المطلوب وارسلهُ الى الباشا صحبة الشيخ احمد العكس من دروز حفة حلب فدفع الرسول ثمانين الفًا وهرب من الشام بالعشرين الالف الباقية فطلبها الباشا من الامير فاعتذر

عن اداثها ثانيةً بما كان من فعلة ابن العكس فلم يرتضِ بذلك بل ركب للقتال وسار حتى قب الياس فارسل الامير اليهِ مبلغًا واعتذر عن الباقي فابى الباشا الامهال وتوافدت اليهِ العساكر ومن جملتهم الامير احمد الشهابي مع ان الباشا كان قد نكبهُ بعشرة آلاف غرش فسرَّ بهِ ووعدهُ بولاية حاصبيا وسائر وادي التيم فلما علم اخوهُ الامير علي بذلك جمع رجالهُ وانضم الى عسكر الامير يونس وارسل ابنهُ بشرذمةٍ من الرجال لنجدة الامير علي بن فخر الدين في قلعة بانياس اما الباشا فارسل الشيخ مظفرًا برجالٍ من اتباعهِ الى الباروك فلقيهم المعنيون وحاربوهم فكسروهم وردوهم على الاعقاب خائبين واقام الامير يونس في الباروك متوقعًا هجوم الباشا عليهِ بكل قوتهِ الاَّ ان الباشا كان قد دسَّ لاهل الشوف الخروج عن ولاء الامير والالتجاء اليهِ فيلقون خيرًا فاجابهُ بعضهم الى ما اراد فخاف الامير يونس من مغبة الانحراف عنهُ وذهب من الباروك الى بانياس وقدم الباشا فدخل دير القمر واثخن فيها قتلاً ونهبًا واحرق منازل المعنيين وارسل الشيخ مظفرًا الى عبيهِ فاسر الامير ناصر الدين التنوخي وجاء بهِ الى الباشا فاكرمهُ وولاهُ الشوف واما المعنيون فاحتشدوا في مرج بسري وجاءهم عسكر الباشا ولما التقوا انكسر جيش الباشا فارسل المعنيون يبشرون الامير يونسًا بظفرهم و يطلبون مددًا وكذلك بعث الباشا يستقدم حسين باشا سيفا من الدامور فجاء ووقع المصاف وكانت عدة رجال الشوف اربعمائة واما عسكر الباشا فعشرون الفًا فانكسر الشوفيون وولوا الادبار وفي طريقهم التقوا بنجدة اميرهم فعاد بهم الى بانياس وانصرف الامير علي الى بلادهِ وتشتت اهل الشوف في وادي التيم وخلا الجو لجيش الباشا فشرع يعيث في الشوف فسادًا من قتلٍ وسلبٍ وحرق ثم قصد قلعة شقيف نيرون فلم يقوَ عليها فتركها وعاد الى دمشق وفي طريقهِ اليها اتمَّ خراب البلاد . ولقد ذكر العلاَّمة الدويهي ان سبب رجوع الباشا عن تتبع نصرو ما عملهُ من مقتل الصدر الاعظم نصوح باشا فخاف وسرَّح العرب ونكص راجعًا ولا نعلم موضع هذا السبب من الصحة لان هذه الحرب وقعت سنة ١٦١٢ ولم يكن امدها طويلا ليتجاوز السنة والمعهود ان مقتل نصوح باشا كان في ١٢ او ١٣ رمضان سنة ١٠٢٣ هـ المعادلة سنة ١٦١٤ على ما يستفاد من المحبي ومن تاريخ تركيا لجوانين وفان كاثر

ولما رجع احمد باشا الى دمشق عاد الامير يونس الى دير القمر واقام فيها لانهُ كان قد اتخذها مركزًا للولاية منذ فوض اليهِ اخوهُ الامارة فانتقل من بعقلين اليها

ولما عزل احمد باشا الحافظ سنة ١٦١٣ عن الشام وعين محمد باشا جركس ارسل متسلمهُ وامرهُ ان ينادي بالامان و يرد جميع النازحين فضمن بلاد الشوف للشيخ يوسف المعلماني من

اعوان بني معن فارسل اليهِ الامير يونس الشيخ ابا نادر الخازن والشيخ ابا ظاهر حبيش ليسعفاهُ في عد الاشجار واستيفاء المال ولما وصل محمد باشا الى حلب اطلق سراح ام الامير فخر الدين ومن معها من الرهائن التي ابقاها احمد باشا عندهُ حين مصالحتهِ الاولى وعفا محمد باشا عن الامير فخر الدين وأمنهُ ليعود الى بلادهِ فارسل الامير يونس كتاب الامان الى اخيهِ

وكان فخر الدين احب الوقوف على شؤون بلادهِ فارسل رسلاً اليها مع جماعة من سياح الافرنج فوصلت الرسل ونزلوا ضيوفاً على اخيهِ الامير يونس في دير القمر ثم تفقدوا القلاع وعادوا بالجواب من الامير يونس ومعهم الشيخ خاطر الخازن وخمسون رجلاً من الشوف

وبينما كان في بيزا زارهُ قنصل فرنسا وقدَّم لهُ رسالةً من الملك لويس الثالث عشر يدعوهُ بها الى بلاطهِ ويعرض عليهِ التوسط لهُ لدى السلطان ليعفو عنهُ فيرجع الى قومهِ آمناً فاجاب متلطفاً بالاعتذار عن قبول الدعوة

وكانت مملكة اسبانيا في ذلك الحين متسلطةً على بعض ارجاء ايطاليا ومن جملتها مسينا فاراد ملكها فيليب الثالث ان يضيف الامير فخر الدين فأمر عاملهُ في مسينا ان يكتب الى كران دوك توسكانا ملتمساً منهُ ان يبعث الامير الى بلادهِ ضيفاً على حكومتها وفي رواية تشرشل ان الكران دوك طلبهُ ذات يوم الى حديقة القصر فذهب اليها مع شيخ الاسلام نصر الدين فرأى الدوك يتمشى مع رئيس وزراء ملك نابولي فلما اجتمعوا اطلعهُ الكران دوك على كتاب من الملك فيليب الثالث يدعوهُ بهِ لزيارتهِ في مدريد ويعدهُ اذا صار مسيحياً ان يُعطى امارةً اعظم من امارة لبنان فاجاب الامير شاكراً احسان ملك اسبانيا وعنايتهُ بهِ ولكنهُ قال اني لم آتِ الى هذه الديار لعلةٍ دينية ولا لاطلب حكومة ولكني جئت ملتجئاً ثم قال للكران دوك انك ظلمتني بحمايتك واغدقت عليَّ نعمك ولذلك اصبحت في منةٍ زائدة لفضلك فان شئت ان ابقى هنا فاني مطيع لامرك وان شئت ان ترجعني الى وطني سررت جداً اه . الاَّ ان روايةً أُخرى تقول ان الكران دوك خيَّرهُ في الذهاب الى مسينا او في البقاء في بيزا فقبل الدعوة ترويحاً للنفس فاعطاهُ الكران دوك سلسلةً من ذهب واعدَّ لهُ مركباً فسافر بعيالهِ والشيخ خاطر الخازن وبقي الحاج كيوان في توسكانا ولما بلغ الامير مسينا استقبلهُ واليها الاسباني بالانس والترحاب واقام عندهُ مكرَّماً في قصرٍ عظيم أُعد لهُ

وبعد حينٍ استأذنهُ فخر الدين في الذهاب الى بلادهِ ليطَّلع على شؤونها فأذن لهُ وسيَّرهُ ببعض غلمانهِ فلما اقترب من صور ارسل الشيخ خاطر الخازن ليجيء باخيهِ يونس الى قرب الدامور واتفق معهُ على اطلاق البارود في الجو علامةً لوجودهم لكي يقترب منهم فيراهم فذهب

الشيخ خاطر واجتمع في دير بسيم برجلٍ من جماعة اخيهِ ابي نادر واستخبرهُ عن حال البلاد وسألهُ عن والي صفد فاجابهُ انهُ الامير يونس كأنهُ لم يعلم انهُ الامير عليّ او اخطأ الناقل في الرواية وانهُ استناب عليها الشيخ ابا نادر ومن ثمَّ ذهب ابو خاطر الى دير القمر واخبر الامير يونس فركب ومعهُ كثيرون من عظماء الشوف الى الدامور واعطوا العلامة فاقترب مركب الامير من البر وشرع الناس يذهبون اليهِ للسلام على فخر الدين والتمسوا منهُ النزول الى البر فابى الربان ذلك كأنهُ كان محظوراً عليهِ ان يسمح بهِ ولما قضى الامير من الاجتماع وطرهُ سافر فمرَّ على مالطة فرحب بهِ واليها واهلوها ترحابًا عظيماً وحيوهُ باطلاق المدافع ثم عاد الى بلدهِ في ايطاليا

جرجي بني

عمران دمشق

تمهيد

التأليف في هذه الديار ضربٌ من شاقّ الأعمال لا يُعانيهِ الاَّ من يُدانيهِ لضعف مادة العلم وكساد بضاعة الفضيلة وتباين المشارب والمذاهب وشدَّة الضغط والتعسُّف بحيث يضطر في الغالب من يجرأ عليهِ الى التقيّة يستعملها فيما يكتب على حين أنهُ لا تقيّة في العلم ولا خشية من التصريح بالحق الاَّ في اقطار يُحظر فيها كلُّ شيء خلا التمويه والتدليس

لي صديق من حملة العلم اوعز اليَّ ان أُنشئ رسالة أُلمُّ فيها بما تقلّب على دمشق الفيحاء من كُثر وقُلّ وعلم وجهل فامتثلتُ امرهُ وانا أُحاذر ان تنطبق عليَّ بالقول والفعل جملةٌ فاهَ بها احد كتاب الفرنسيس وقد أَلف كتاباً وهو في الخامسة والعشرين من عمرهِ "إن هذا السنَّ يستسهل العقل فيهِ حلَّ المشكلات ويأخذ الاشياء بظواهرها ويحلُّ الخيال منهُ محلَّ النقد والتنقيب ويعتقد المرء في الامور بغير قيد وهو سنٌّ لو انصف اهلوهُ ما كتبوا ولا ألَّفوا"

واذ شرعتُ في العمل تيسَّر لي رغم المصاعب من مخطوط الأسفار ومطبوعها ما لم اتوقع الحصول عليهِ فاستأنستُ ببعض واقتبست من آخر ومما طالعتهُ من المخطوط جانب من تاريخ دمشق لابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ والضوء اللامع لاهل القرن التاسع للسخاوي المتوفى سنة ٩٠٢ والكواكب السائرة في اعيان المئة العاشرة للنجم الغزي المتوفى سنة ١٠٦١ ومختصر الدارس في تواريخ المدارس للعلوي والاصل للنُعَيْمي المتوفى سنة ٩٢٧ ومحاسن الشام للبدري وحوادث دمشق اليومية من سنة ١١٥٤ الى سنة ١١٧٦ لابن بدير وكتاب ثمار المقاصد في ذكر